بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

مكيّة ، وهي ست آيات.

تسميتها :

سميت سورة الكافرون لأن الله تعالى أمر نبيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم بأن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ. وتسمى أيضا سورة المنابذة ، وسورة الإخلاص ، والمقشقشة.

مناسبتها لما قبلها :

أمر اللَّه نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار ، فهو لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام ، وبالغ في ذلك فكرّره وأكّده ، وانتهى إلى أن له دينه ، ولهم دينهم.

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية- سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله تعالى ، وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر ، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان ، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة ، وتفصل النزاع بين فريقي المؤمنين والكافرين إلى الأبد.

ج 30 ، ص : 438

فضلها :

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قرأ بهذه السورة

وب قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ في ركعتي الطواف.

و

في صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قرأ بهما في ركعتي الفجر.

وروي هذا أيضا عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن.

وقدم تقدم في سورة الزلزال في حديث ابن عباس عند الترمذي أنها تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن.

و

روى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة– وهو أخو زيد بن حارثة– : أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك » . وروى الإمام أحمد مثل ذلك عن الحارث بن جبلة.

والخلاصة :

ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قرأ بهذه السورة ، وب قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ في ركعتي الطواف ، وفي ركعتي الفجر ، والركعتين بعد المغرب ، ويوتر بسبح ، وقُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.

سبب نزولها :

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس : « أن قريشا دعت رسول اللَّه صلّى الله

عليه وسلّم إلى أن يعطوه مالا ، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكفّ عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فأنزل الله :

قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة ، وأنزل : قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ [الزمر 39/ 64] » .

ج 30 ، ص : 439

و

أخرج عبد الرزاق عن وهب قال : قالت كفار قريش للنبي صلّى الله عليه وسلّم : إن سرّك أن تتبعنا عاما ، ونرجع إلى دينك عاما ، فأنزل الله : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة.

و

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء قال : لقي الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقالوا : يا محمد ، هلمّ فلتعبد ما نعبد ، ونعبد ما تعبد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فأنزل الله : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ.

ويؤيد هذا

ما ذكره النيسابوري : أنها نزلت في رهط من قريش ، قالوا :

يا محمد ، هلمّ ، اتبع ديننا ونتّبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا مما في أيدينا قد شرّكناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان

الذي بأيدينا خيرا مما في يدك ، قد شركت في أمرنا ، وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك « 1 » .

و

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها « أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف لقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقالوا : يا محمد ، هلمّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا ، كنا قد شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك ، كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ « 2 » » .

---

(1) أسباب النزول للنيسابوري الواحدي : ص 261

(2) تفسير القرطبي : 20/ 225

ج 30 ، ص : 440

سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين [سورة الكافرون (109) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

الإعراب :

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ما بمعنى الذي في موضع نصب ب أَعْبُدُ وتَعْبُدُونَ صلة (الذي) والعائد محذوف ، تقديره : ما تعبدونه. ويجوز أن تكون ما مصدرية ، فلا تفتقر إلى عائد.

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ قال : ما أَعْبُدُ ولم يقل (من) لمطابقة ما قبله وما بعده.

وقيل : ما بمعنى (من).

وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ما في الوضعين في موضع نصب لأنها مفعول ما قبلها ، وهما إما موصولة أو مصدرية مثل ما الأولى.

البلاغة :

يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ خطاب بالوصف للتوبيخ والتشنيع.

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ طباق السلب ، فالأول نفي والثاني إثبات.

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ مقابلة بين الجملتين في الاستقبال.

وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ مقابلة بين الجملتين في الحال أو الماضي.

وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال.

يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية :

يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ، وهم زعماء

الشرك في مكة. لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أي في المستقبل ، فإن لا لا تدخل إلا على مضارع

ج 30 ، ص : 441

بمعنى الاستقبال ، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ، أي لا أعبد في المستقبل ما تعبدون من الأصنام في الحال.

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي ولا تعبدون في المستقبل ما أعبد في الحال ، وهو الله تعالى وحده. وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ أي ولست أنا عابد في الحال أو في الماضي ما عبدتم فيما سلف.

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده ، ويجوز أن تكون الجملتان تأكيدين على طريقة أبلغ. والأدق أن يقال : إن الآيتين (2 ، (3) تدلان على الاختلاف في المعبود الذي يعبد ، فالنبي صلّى الله عليه وسلّم يعبد الله ، وهم يعبدون الأصنام والأوثان. والآيتان (4 ، 5) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها ، فعبادة النبي عليه الصلاة والسلام عبادة خالصة لله لا يشوبها شرك ولا غفلة عن المعبود ، وعبادتهم كلها شرك وإشراك ، فلا يلتقيان.

لَكُمْ دِينُكُمْ وهو الشرك الذي أنتم عليه. وَلِيَ دِينِ وهو التوحيد أو الإسلام الذي أنا عليه ، لا أرفضه ، قال البيضاوي : فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد ، ليكون منسوخا بآية القتال. وقال الزمخشري : والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ، ولم تتبعوني فدعوني كفافا ، ولا تدعوني إلى الشرك.

التفسير والبيان :

هذه سورة البراءة من عمل المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص في العبادة ، فقال تعالى : قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أي قل أيها النبي لكفار قريش : يا أيها الكافرون ، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان ، فلست أعبد آلهتكم بأية حال. والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض. وفائدة كلمة قُلْ : أنه صلّى الله عليه وسلّم كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور ، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن ، فلما كان الخطاب هنا غليظا أراد الله رفع الحرج عنه وبيان أنه مأمور بهذا الكلام ، لا أنه ذكره من عند نفسه.

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد ، فهو الله وحده لا شريك له.

ج 30 ، ص : 442

و هاتان الآيتان (2 ، (3) تدلان على الاختلاف في المعبود ، فالنبي صلّى الله عليه وسلّم يعبد الله وحده ، وهم يعبدون الأصنام والأوثان أو الأنداد والشفعاء ، أو أن المعنى دفعا للتكرار كما ذكر الزمخشري : لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال ، وعلامته لا التي هي للاستقبال ، بدليل أن (لن) للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأبيد ، وأصله في رأي الخليل : لا أن. وما : للحال « 1 » ، وخلاصة المعنى : لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي. وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي ولا أعبد عبادتكم ، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه

ويرضاه ، وأنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم ، فعبادة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه خالصة لله لا شرك فيها ولا غفلة عن المعبود ، وهم يعبدون الله بما شرعه ، ولهذا كانت كلمة الإسلام : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » أي لا معبود إلا الله ، ولا طريق إليه في العبادة إلا بما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

والمشركون يعبدون غير اللَّه عبادة لم يأذن الله بها ، فكلها شرك وإشراك ، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان.

فالآيتان (4 ، 5) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها. ويرى بعضهم كالزمخشري : وما كنت قط في الحال أو في الماضي عابدا ما عبدتم ، يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى مني في الإسلام ؟ ! وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

وقيل : في الآيات تكرار ، والغرض التأكيد ، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم.

)

(1) قد فهم بعضهم خطا ما أراده الزمخشري هنا وفي الآيتين بعدهما. فقلب الوضع ، وجعل الاستقبال محل الحال وبالعكس.

ج 30 ، ص : 443

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ أي لكم شرككم أو كفركم ، ولي ديني وهو التوحيد والإخلاص أو الإسلام ، فدينكم الذي هو الإشراك ، لكم لا يتجاوزكم إليّ ، وديني الذي هو التوحيد

مقصور علي لا يتجاوزني ، فيحصل لكم. وقيل : الدين :
الجزاء ، والمضاف محذوف ، أي لكم جزاء دينكم ، ولي جزاء ديني. وقيل :
الدين : العبادة.
وليست السورة منسوخة بآية القتال ، والمحققون على أنه لا نسخ ، بل المراد التهديد ، كقوله تعالى : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ [فصلت 41/ 40].
ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس 10/ 41] وقوله :
لَنا أَعْمالُنا ، وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ [القصص 28/ 55]. والمراد بذلك كله التهديد ، لا الرضا بدين الآخرين.
وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورّث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.
وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ، لحديث أحمد وأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » .
قال الرازي : جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ عند المتاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه « 1 » .

)

(1) تفسير الرازي : 32/ 148

ج 30 ، ص : 444

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على اختلاف المعبود واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم ، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام ، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لالقاء بين الكفر والإيمان ، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه المؤمنين وبين الكفار : فهو أن الفريق الأول يعبد الله وحده لا شريك له ، والفريق الثاني يعبد غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر أو الملائكة أو الكوكب أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود ، وبما شرع الله لعباده من كيفية العبادة المرضية له ، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك وبنحو اخترعوه لأنفسهم ، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام لأن الدين الحق المقبول عند الله هو الإسلام وهو الإخلاص للّه والتوحيد. وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد.

ج 30 ، ص : 445